الخلق فى ضوء التحليل النفسى *

بقلم

كمال الدين عبد الحميد نابل

مدرس الفلسفة بالحلمية الثانوية

٢

فكرة اللاشعور من الأفكار الموجهة الهامة فى نظرية فرويد . فاللاشعور هو المنبع الأصيل الذى تصدر عنه شتى ألوان النشاط النفسى . فالحياة النفسية عند فرويد لا ترادف ما هو شعورى بل هى أوسع من ذلك وأكثر عمقاً . ولقد رأى فرويد أن الحياة النفسية تنتظم وفقاً لثلاثة مستويات : (١) الشعور : ويشمل ذلك الجانب من الحياة العقلية الذى يكون فى إدراك الفرد فى لحظة معينة (٢) ماقبل الشعور : ويشمل ذلك الجانب من الحياة العقلية الذى لا يكون المرء مدركاً له ولكن فى إمكانه أن يسترجعه إلى شعوره بقدر من الجهد الإرادى أو عن طريق التداعى . وهو أقرب صلة بالشعور منه باللاشعور (٣) اللاشعور وهو أعمق مراتب الحياة النفسية ؛ وهو مستودع النزعات البدائية الغلابة التى لا تعترف إلا باللذة كقانون تسير وفقاً له ولا يعنيها الواقع فى كثير ولا قليل . وهى أعصى مراتب النفس فى الكشف عن محتوياتها . بيد أن فرويد يعتقد أن التمييز بين الشعور وما قبل الشعور واللاشعور ليس كافياً ، ولقد أحل محله أفكاره فى الذات Ego ؛ والهى Id ؛ والذات العليا Super - Ego . ولكى نعرف ونحدد كلا من الذات ، والهى ، والذات العليا من حيث علاقتها بمراتب الشعور علينا أن نلقى نظرة على الجدول الآتى الذى وضعه دالبييه فى « منهج التحليل النفسى ومذهب فرويد » .

---

* تتمة المقالة المنشورة فى العدد السابق (اكتوبر ١٩٥١ — ص ١٨٥) .

عمليات نفسية شعورية ← الذات

عمليات نفسية غير شعورية ← اللاشعور « غير قابل للاستدعاء الإرادى » ← الكابت (٣) الذات العليا

ما قبل اللاشعور « قابل للاستدعاء الإرادى » ← المكبوت (٤) الهى

والذات تشمل العناصر الشعورية وما قبل الشعورية ؛ والذات العليا تشمل اللاشعور الكابت والهى تشمل اللاشعور المكبوت ولكنها ليست قاصرة عليه وحده . وعلينا الآن أن نوضح كلا من « الهى » و « الذات » و « الذات العليا » . فالهى تشمل مجموع الدوافع البدائية والغرائز الأولية ، وهى مكبوتة نشيطة حيوانية طفلية جنسية غير منطقية . ولقد خلع عليها Baudouin اسما معبراً فسماها بالبدائية. ولكى نتوخى الدقة التامة علينا أن نضيف أن فرويد لم يوحد ويطابق تمام المطابقة بين الهى والمكبوت Repressed ، بل هو يرى أن المكبوت(٢) ما هو إلا جزء من « الهى » ولذلك نكون أكثر دقة على حد تعبير دالبييه إذا ما عرفنا الهى بالإشارة إلى مفهومات الغريزة والأصل البدائى منا لو عرفناها باللجوء إلى الكبت واللاشعور . وتخضع « الهى » خضوعاً مطلقاً لسيادة مبدأ اللذة ولا تعترف إطلاقاً بمبدأ الواقع . وتمثل الذات تمايزاً ثانوياً للهى نتيجة لتأثير العالم الخارجى الذى يدفع الشخصية إلى أن ترتقى إلى مستوى الواقع . ولقد رأينا أن الذات تشمل العمليات الشعورية وما قبل اللاشعورية. ولعل ما سبق يعيننا على تفهم التخطيط أو الرسم الآتى للنفس كما يراها فرويد . فهو يضع « مجموعة الإدراكات الشعورية » فى مقدمة الجهاز النفسى لأنه يمكننا القول كقاعدة عامة — ولو أن هذه القاعدة تؤذن ببعض الشذوذ — إن الإحساسات الخارجية شعورية . ولقد احتفظ فرويد بمركز ممتاز للإحساسات السمعية . وتحت النظام الإدراكى الشعورى يقع ما قبل اللاشعور . والذات التى تنتمى إلى الشعور وما قبل الشعور ما هى إلا استمرار مباشر للهى . فالذات تمثل من وجهة تطور الفرد وتطور النوع تمام عمل الهى . والعناصر المكبوتة جزء مهم من الهى انفصل عن الذات عن طريق المقاومة . وليس للذات العليا مكان فى الرسم السابق . ولقد كتب فرويد يقول « يبدو من العبث ، أيا كان الأمر ، محاولة إيجاد مكان للمثل الأعلى للذات ولو بنفس المعنى الذى قد أوجدنا

(1) Dalbiez : "Psycho anaiytical Method & the Doctrine of Freud". p. 405.
(2) Freud : "The Ego & the Id." p. 28.

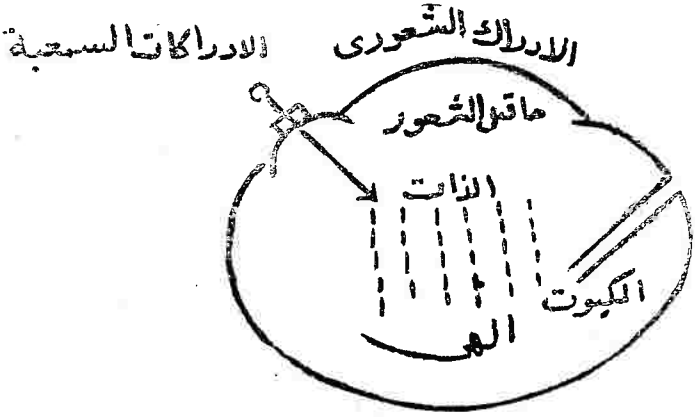

به مكاناً للذات ؛ أو محاولة إدخالها فى أى صورة من صور المماثلة التى قد حاولنا عن طريقها تصوير العلاقة بين الذات والهى[1] » . ورأى فرويد فى نشأة الذات العليا يستحق الإشارة . ففرويد لا يؤمن بأصالة العقل بل يتخذ اتجاهاً تجريبيا فى نظرته الأخلاقية . ويشير فرويد إلى ميكانيزم الامتصاص ليفسر الآراء والأفكار الخلقية . ويحدث الامتصاص عند ما يدمج الشخص فى « ذاته » ماينتمى إلى ذات أخرى . ولنذكر مثالا مقتبساً من الدكتور[2] فرنك يوضح لنا معنى الامتصاص أو التقمص . قالت مريضة من مرضى الدكتور فرنك كانت تعانى منذ عامين الأرق والانقباض، فى زيارتها الثانية، أنها قد حلمت بمسز ثو Thaw . وعلينا أن نذكر أن زوج هذه السيدة الأمريكية المفرطة فى الثراء قد قتل عشيق زوجته وأرسل إلى أحدى مستشفيات الأمراض العقلية . فلما سألها الدكتور فرنك سؤالا عارضاً اندفعت الحالمة فى الدفاع بحماسة عن مسز ثو . ومن ثم استنتج المحلل النفسى أن مريضته قد تقمصت مسز ثو لأنها قد وقعت تحت تأثير نفس الإغراء الذى خضعت له السيدة المذكورة . ولقد أكد التحليل هذا التفسير . فمنذ عامين مرت المريضة بخبرة جنسية كان لها أثر كبير فى نشأة حالة الانقباض النفسى التى تعانيها . وكان دفاعها الحار عن مسز ثو هو فى واقع الأمر دفاعاً عن نفسها . ويرى فرويد نوعاً من التقابل بين التقمص والرغبة

(1) Freud : "The Ego & the Id." pp. 48-42.

(2) Frink : "Morbid Fears & Compulsions". pp. 10-11.

مؤمناً بأن الموضوع الغريزى عندما تبطل الرغبة فيه أى عندما لا يصبح مرغوباً فيه فإنه(١) يمتص بدافع التعويض . ولقد تمشى فرويد مع نظريته فى الجنسية الطفلية إلى أقصى نتائجها فذهب إلى أن الطفل يجد والديه جذابين سواء من وجهة الجنسية المثلية أو الجنسية الغيرية فى نفس الوقت . وهذا ما يسميه فرويد بمركب أوديب الكامل Complete Oedipus Complex . ولقد اعترف فيما بعد ، بفضل مبدأ التناقض الوجدانى ، أن كلا من هذه المكونات الإيجابية يقابله ويناظره مكون سلبى أى حافز للكراهية . وعندما تحل عقدة أوديب يحدث امتصاص تعويضى لصورة الوالدين . فيمتص الطفل معتقدات أبيه وأحكامه . ويترتب على ميكانيزم التقمص تكوين الذات العليا . وهذا رأى تجريبى يفسر لنا نشأة الأخلاق . فيقول « عندما كنا أطفالا صغاراً عرفنا هذه المخلوقات الرفيعة وأعجبنا بها وخفنا منها وقد أدخلناها — أدمجناها — فيما بعد فى ذواتنا(٢) » وبناء على ذلك تكون الذات العليا وريثة لعقدة أوديب .

وهناك سؤال أخير فيما يتعلق بنشأة الذات العليا لا يزال فى حاجة إلى الإجابة ألا وهو : لماذا تكون الذات العليا لاشعورية بالمعنى الدقيق لهذا اللفظ وغير قابلة للاستدعاء الإرادى ؟ فإذا كان اللاشعور بالمعنى الدقيق لهذا اللفظ إذا ما قابلنا بينه وبين ما قبل الشعور معلولا للكبت فكيف يمكن أن نعزو للكابت ما ينبغى أن يكون خاصية ينفرد بها المكبوت ؟ معظم الفرويديين يتركون هذه المشكلة دون حل . ولقد تجنب أرنست جونز هذه الصعوبة بتقسيمه للذات العليا إلى قسمين (٣) : الأول شعورى ويناظر أخلاقية البالغ ، والثانى لا شعورى ويناظر « الأخلاقية » الطفلية المتأخرة . ولا شعورية هذا الجزء البعيد الغور من الذات العليا يمكن أن يكون مرده إلى « عملية شبيهة بالكبت ، ومن المحتمل أن يكون رد فعل دفاعى ضد الألم الناتج من الذنب » . فللذات العليا اشتقاقات شعورية كثيرة منها الضمير أو المثل الأعلى للذات Ego-ideal . ولكن علينا أن نميز بينها وبين الذات العليا بدقة . وعلى هذا النحو نقول إن الذات العليا الأصيلة أو الجوهرية ما هى إلا نظام لا شعورى لدرجة يصعب معها على المريض

(١) Freud : "The Ego & the Id." pp. 36-40.
(٢) Freud : "The Ego & the id." p. 47.
(3) Jones : "The development of the Concept of the Super-Ego. in the J. of Ab. Psyc, vol, XXIII, part VIII, p. 281.

آن يكون واعيا[1] لنشاطها ويقول أرنست جونز « إن الانتباه الذى وجهه كثير من علماء التحليل النفسى فى لندن خاصة ميلا نى كلين إلى عمليات الامتصاص والإسقاط قد أدى بنا إلى فهم عميق لنشأة الذات العليا » وفى ضوء هذه الخبرة يرى أرنست جونز أن آراء فرويد بصدد « الذات العليا » فى حاجة إلى تعديلات مهمة فى نقطة أو موضع واحد ، وتوسيع فى موضعين أو نقطتين . وأول هذه النقط التى تتطلب التعديل إنما تتعلق بالصورة التى رسمها فرويد للذات العليا على أنها حل للعقدة الأوديبية . فالطفل عندما يواجهه عدم الأمل فى تحقيق رغباته الأوديبية بسبب الحرمان الذى لا يلين ولا يرحم والخوف من العقاب ، يتخلى عن هذه الرغبات على شرط أن يدمج فى ذاته شيئاً من صفات الوالدين . فهذه الصورة من الفزع والحب المشتقة من الوالدين ، ولو أنها مشتقة بوجه خاص من نفس الوالد الذى من نفس الجنس ، تكون إذن الذات العليا التى تستمر فى مزاولة وظيفتها من ملاحظة وتهديد . وقد تلجأ الذات العليا عند الضرورة إلى معاقبة الذات إذا ما ظهر منها الميل إلى الإصغاء أو الالتفات إلى الرغبات الأوديبية الممنوعة المكبوتة « للهى » التى أصبحت محرمة عليها الآن . وعلى هذا النحو يسمى فرويد — كما سبق لنا القول — الذات العليا وريثة العقدة الأوديبية : أى مشتقة منها وبديلة عنها . وإذا ما كان كل هذا يشير إلى الناتج التام أو المنتهى أى إلى الذات العليا كما ستستمر بوجه عام أثناء الحياة ؛ وإذا ما قصرنا أيضاً عبارة الذات العليا على هذا الناتج التام أو المنتهى فإن صيغة فرويد لا تزال صحيحة . ولكن إذا ما كانت هذه الصيغة تفيد أن لا شىء من الذات العليا يمكن أن يميز إلى أن نصل إلى مرحلة انتهاء حل عقدة أوديب ؛ أى فى حوالى السنة الرابعة أو الخامسة ، فعندئذ تكون النتائج النهائية المبنية على الملاحظات الأخيرة مباينة لها ومختلفة عنها تمام الاختلاف ، وإذا ما كان الأمر لفرويد فإنه سيضيق ما تفيده « الذات العليا » على ما يسميه أرنست جونز بالناتج المنتهى أو التام Finished Product وسيعزو الأهمية العظمى لضروب الصراع الأوديبى فيما بين الثالثة والخامسة . ولكن فرويد كان سيوافق — على حد تعبير جونز — على أن هناك تاريخاً سابقاً فيما يختص بعقدة أوديب نفسها (صعوبات ما قبل المرحلة

(1) Jones: "The Genesis of the Super-Ego" *in* the Yearbook of Psycho-Analysis, vol. IV, 1948 P, 43

التناسلية) وربما كان يوافق أيضاً على القلق والخوف من العقاب الذى يسبق زمنيا الموقف الأوديبى ويمهد الطريق لخصائص أو صفات الذنب Guilt Attributes للذات العليا .

وقبل أن نأخذ فى سرد التعديل الجديد لرأى فرويد ، نذكر النقطتين الآخريين . وإحداهما تتعلق بتاريخ المسألة جميعها . ولدينا الآن الكثير من الأسباب — على حد تعبير جونز — التى تجعلنا نعتقد أن كلا من عقدة أوديب نفسها مع كل خصائصها المميزة لها (كالرغبة الشهوانية بالنسبة للأم ؛ والكراهية بالنسبة للأب ، والخوف من الإخصاء) والذات العليا فى صورتها الناضجة يمكن أن نتعرف عليها قبل الوقت الذى عينه لها فرويد بزمن طويل . وأن فى الإمكان أن نرجع بها إلى السنة الثانية من العمر إن لم يكن السنة الأولى . ونلاحظ ثانياً أن الخوف من العقاب وكذلك المنابع الأخرى للقلق التى تلعب دوراً مهماً فى نشوء الذات العليا لا تنبع جميعها بأى حال من الأحوال من الموقف الأوديبى نفسه بل لا يزال لها منابع أعمق تنبع منها وتصدر عنها . وإذا ما عبرنا عن ذلك بوضوح نقول إن لدى الصبى أسباباً أخرى للقلق بالإضافة إلى الفزع من العقاب الذى يوقعه به الأب المنافس له فى حب الأم ؛ وأن مصادر القلق إنما تنبع من صلته وعلاقته بأمه . وكما أشرنا إلى ذلك من قبل ، فإن التعديل الذى يجب أن يطرأ على نظرية فرويد فى الذات العليا إنما هو نتيجة للدراسة الدقيقة لعمليتى الامتصاص والإسقاط ، والفضل فى ذلك إنما يعود إلى بحوث ميلانى كلين Melanie Klein التى أصبحنا بفضلها على معرفة ليس فقط بالسن المبكرة التى يبدأ فيها الامتصاص والإسقاط ، ولكن أيضاً بالتفاعل غير العادى المستمر بين هاتين العمليتين فى كل لحظة من خبرات الطفل الصغير . فالامتصاصات هى ما تكوّن الذات العليا . وهذه الامتصاصات ليست مجرد إدماجات بسيطة للحقائق والموضوعات الخارجية بل هى إلى حد كبير إدماجات لإسقاط الطفل كذلك . وهذه نقطة بالغة الأهمية . فإذا ما وعينا هذه الحقيقة نفهم أن مساهمة الطفل فى تكوين الذات العليا أكثر أهمية من تلك التى يقدمها العالم الخارجى خاصة الوالدان . وهذه نتيجة ربما تردد فرويد فى قبولها .

ونعود إلى رأى فرويد فيما يختص بعلاقة مركب أوديب بالذات العليا . إنه ، ولا شك ، كان سيوافق على أن صورة الطفل عن أحد والديه

الذى ينهى ويتوعد هى صورة مبالغ فيها ومشوهة . ولو أن الآباء فى إمكانهم أن يقتلوا أو يخصوا أطفالهم الذكور إلا أنهم قليلا جداً ما يفعلون . وعلى الرغم من ذلك ، فكل صبى يتصور وقوع هذه الحوادث ويترتب على احتمال وقوعها الفزع منها . وعلى ذلك ، إذا كان فرويد يقول بأن الذات العليا تكتسب قوتها فى التأثير على الذات بتمثيلها لمطالب الواقع ، فإن علينا أن نضيف إلى ذلك المطالب غير الواقعية أيضاً . وإذا ما شئنا الدقة لقلنا إنها تصوير لمطالب الواقع النفسى والواقع الخارجى ويرى أرنست جونز أن هذه الإضافات ، التى هى من خلق الطفل ، إلى صورة أحد الوالدين أكثر أهمية وأطول تاريخاً وأكثر تعقيداً مما ظن فرويد .

ومن المسلم به ، أيا كان الأمر ، وجود هذه الإضافات : ومن ثم تواجهنا فى الحال مشكلة نشأة وأصل هذه الإضافات : فسرعان ما نجد لفرط دهشتنا أن لدى الطفل دافعاً يدفعه إلى تعظيم وتهويل الأخطار الخارجية أى فى تصور الأب أو الأم فى صورة مخالفة كثيراً للواقع كأن يكون الأب أو الأم أكثر شدة وعنفاً وتقييداً مما هما عليه فى الواقع . ويجد الطفل فى هذه الطريقة راحة له من مخاوفه الداخلية التى لا يستطيع احتمالها والتى هى أقل هدوءاً نظراً للاطمئنان الحادث من معرفة أن الموضوع الخارجى (أحد الوالدين) يكن له بعض الحب وأن هناك حدا لغضبه . وهو يحقق ذلك عن طريق ميكانيزم الإسقاط ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن المسألة ليست بالسهولة التى نتصورها ما دام الطفل يتذبذب فى تقديره للأخطار الداخلية فى مقابل الأخطار الخارجية خاصة عندما تشمل الثانية الأخطار التى يسقطها الطفل . فالعفريت الخارجى External bogey قد يصبح مرعباً إلى درجة بعيدة مما يترتب على ذلك امتصاص الطفل له فى الذات العليا لكى يتمكن من تحقيق السيطرة عليه على نحو أفضل . ومع ذلك ، فإذا ما امتصه الطفل فإنه يبدو مرة ثانية خطراً بدرجة لا يتحملها الطفل مما يضطره إلى البحث حواليه عن موضوع مناسب فى العالم الخارجى لكى يسقطه عليه مرة أخرى . وهذه العملية المزدوجة تستمر دواماً وربما تتكرر بلا مالا نهاية فى محاولة الطفل أن يحقق بعض الراحة من القلق النفسى الذى يعانيه . وتكشف هذه الوسائل اليائسة عن أن لدى الطفل منابع هائلة للقلق ، ومن أجلها يكون تكوين الذات العليا وسيلة مقصودة من وسائل الخلاص من

ذلك القلق . وهذه الوظيفة الدفاعية defensive function للذات العليا هى الموضوع الرئيسى لهذا البحث . فمن أين أتت هذه العفاريت المرعبة تصاحبها الحاجة إلى هذه الوسائل الدفاعية اليائسة ؟ إن الذات العليا هى بحق ، من بين أشياء أخرى ، قاسية مضطهدة مما جعل للذات العذر الكافى للفزع منها ، ولكن الذات العليا ، فضلا عن ذلك ، ترجع فى جزء صغير منها إلى النواهى والعقوبات المفروضة على الطفل الصغير النامى ، وترجع فى جزء كبير منها إلى خلق الطفل نفسه . ولكن لماذا كان على الذات العليا أن تخلق فى داخلها نظاماً غير ملائم مثل هذا النظام ؟ لعل هناك من الأسباب ما يدعو إلى قيامها بمثل هذا العمل الذى يدعو إلى الغرابة . وإذا ما عبرنا عن ذلك بطريقة موضوعية قلنا إن الذات العليا يجب أن تحقق وظيفة بالغة الأهمية لكى تعوض عن مضارها ومساوئها الواضحة .

يمكن أن يكون هناك شك قليل فى أن الإحساس بالوجوب أو الأمر المطلق Categorical Imperative المميز للذات ، ذلك الإحساس بالوجوب الذى سيكون فيما بعد الاتجاه الخلقى ، إنما هو مشتق من الإحساس المبكر بالإلزام Mustness. وإذا ما عبرنا عن ذلك بطريقة أخرى قلنا إن تهديد الذات العليا للذات : « ينبغى عليك أن لا تفعل ذلك وإلا أعاقبك » لبديل عن أمر مبكر « لايجب ان تعمل ذلك لأنه مضر (أو خطر) » . ولكن كيف تم هذا التحول من الخوف إلى الآثار المبكرة للإحساس الخلقى ؟ وما هى طبيعة هذا الخوف الذى نحن بصدده ؟ إن المخاوف المبكرة للطفل تتكون على أساس مادى أكثر مما تتكون على أساس معنوى . فخوف الطفل إنما هو خوف من الخسارة التى تصيب مصالحه وضروب اهتمامه كالحرمان والأذى الجسمى . فى العام الأول من حياة الطفل يبدأ الحب والحاجة إليه فى أن يلعبا دورهما المتزايد الأهمية . ويصاحب هذا الحب إمكانية جديدة ألا وهى الخوف من ضياع الحب بتكدير أو إيذاء المحب وبوجه خاص الأم . وامتداد حاجات الطفل من مستوى الحاجات الجسمية إلى المستوى المعنوى هو الذى يحدث التحول من الإلزام الصادر من الخارج إلى الأمر المطلق المنبعث من الداخل . والخوف من الإخصاء لا يزال حالة لا خلقية . ومجازفة الطفل بتكدير أمه وفقد حبها له يصبح أمراً من « الخطأ » اتيانه . وبمرور الزمن تصبح علاقة الطفل بوالديه أكثر تعقيداً ويصبح امتناع الطفل عن إتيان الأعمال الخاطئة

بنفس الدرجة من الأهمية التى يتجنب بها الأعمال التى يتولد عنها خطر . وربما كانت أهم مرحلة يحدث فيها هذا الأمر هى مرحلة ضبط المصرة . وهى مرحلة التدريب الخلقى المبكر للطفل الصغير . وهذا التدريب يحدث قبل أن يبدأ المركب الأوديبى نشاطه بزمن طويل فيما يرى فرويد — أو على أية حال عندما يكون المركب الأوديبى فى حالة بدء النشاط . ولقد تحدث Ferenczi ، بحدس العبقرى ، عن أخلاقية المصرة Sphincter Morality شاعراً بأن فى هذه المرحلة تظهر تباشير الاتجاهات الخلقية . ولكن كان يعوزه التصور الكامل للمعانى الدافقة التى يمكن أن يلصقها الطفل لضروب النشاط الإخراجى . فهى ليست مجرد حاجات فيزيقية بسيطة ولو أنها تشتق كثيراً من طبيعتها الاضطرارية من هذه الظاهرة ، وهى ليست مجرد مكونات مهمة للغريزة الجنسية (الشبقية البولية والشرجية . Urethral & Anal erotism) . فضروب النشاط الإخراجى ما هى إلا وسائل الدوافع العدوانية الهدامة . وهى أكثر من هذا متعلقة ومرتبطة بالإدماجات المتعلقة بأكل الوالدين Cannibalistic Incorporations التى تسبقها أو تصاحبها .

ويمكن النظر إلى الذات العليا على أنها حاجز ضد النزعات المؤذية الممنوعة ، كما يمكن النظر إليها كذلك على أنها منفذ غير مباشر لهذه النزعات . ويمكن أن نجد آثار المكونات الغريزية جميعها فى نشاطها حتى ولو انفصلت عنها الصفة الجنسية بطريقة غير كاملة . فالدافع إلى التلذذ الجنسى عن طريق الرؤيا أو التأمل Scopophilic Impulse يظهر فى الملاحظة اليقظة واتجاه الحراسة الذى تقوم به الذات العليا ، ويتفصح المكون الأستى التعشقى Anal-erotic Impulse ، عن طريق رد الفعل ، فى النزعة إلى التنظيم والإحساس بالواجب ، فى حين أن المكون السادى يتفصح فى ضروب الأذى التى تصبها الذات العليا على الذات . ويبدو رد الفعل للدافع التناسلى الأكثر اكتمالا ونمواً فى الاحتقار الخلقى للزنا بين المحارم . ولكن نجد ، إلى جانب ذلك ، الحب الإيجابى الفعال نحو أبدال الأب (كالمثل الأعلى للذات) .

ولقد تمكنا حتى الآن من أن نتعقب نشأة الذات العليا فيما قبل المرحلة الخلقية ، هذه المرحلة التى أطلق عليها أرنست جونز « كف ما قبل الذنب الأصيل » Prenefarious Inhibition ويعنى جونز بهذا الاصطلاح المرحلة الأولى لنمو

استجابة الذنب Guilt Reaction .

ووظيفة الذات العليا فى هذه المرحلة تبدو على أنها حاجز بسيط ضد نزعات الهى أو بتعبير أفضل وأدق ضد القلق الشديد الذى لا يستطيع الطفل أن يتحمله نتيجة لنزعات الهى . ولقد بنى أرنست جونز فى بحث له بعنوان :

The Origin & the Structure of the Supe-Ego « أن هناك كل ما يبعث على[1] الاعتقاد بأن مفهوم الذات العليا هو النقطة التى نتوقع أن نتلاقى عندها المسائل الغامضة لمركب أوديب والنرجسية من ناحية، والكراهية والسادية من ناحية أخرى»

وإذا كنا قد أشرنا إشارة عابرة إلى نظرية ميلانى كلين فى نشأة الذات العليا فعلينا أن نعرض لها فى صورة أكثر وضوحاً ذلك لأنها تعبر عن اتجاه جديد فى تصور وفهم الذات العليا . ولقد استقت مسز ميلانى كلين حقائقها من ملاحظتها للعب الأطفال العصابيين وخيالاتهم. وهذه الخيالات بالطبع مشوهة كثيراً عن تلك التى للأطفال الأسوياء .

ترى ميلانى كلين أن فرويد قد سلك[2] اتجاهين يكمل أحدهما الآخر إلى حد ما فى نشأة الذات العليا . ويفيد أحد الاتجاهين أن قسوة وصرامة الذات العليا مشتقة من قسوة وصرامة الأب الحقيقى الذى تعيد وتكرر الذات العليا أوامره ونواهيه . ويفيد الاتجاه الآخر ، كما يظهر فى فقرة أو فقرتين من كتاباته ، أن قسوة وصرامة الذات العليا إنما هى نتيجة للدوافع العدوانية للشخص، ويقول فرويد فى كتابه الموسوم بعنوان . Civilzation & its discontents

« لقد دلت[3] التجربة، أيا كان الأمر، على أن قسوة الذات العليا لا تناظر بأى حال من الأحوال قسوة المعاملة التى عاناها الطفل بالفعل ؛ وأن « القسوة الأصيلة للذات العليا لا تمثل أولا تحمل كثيراً طابع القسوة التى عاناها الطفل بالفعل أو توقعها من « الموضوع » ولكنها تفصح عن عدوانية الطفل نفسه نحو الموضوع » . وتقول ميلانى كلين إن معظم المشتغلين بالتحليل النفسى قد ساروا على هدى الاتجاه الأول وتغافلوا عن المعانى التى يتضمنها الاتجاه الثانى .

وتقول ميلانى كلين إنها وقعت على حقائق معينة تؤذن بتوسيع مذهب فرويد

---

(1) Ernest Jones : "The Origin & the Structure of the Super-Ego" p. 304(1926).
(2) Melanie Klein : "The Psycho-Analysis of Children" pp. 197-209.
(3) Freud : "Civilization & its Discontents" p. 237.

فى هذا الموضوع — موضوع الذات العليا — نتيجة لتحليلها لصغار الأطفال ، كما ترى أن ليس ثمة مجال للشك فى أن الذات العليا كانت فى عمل إيجابى نشيط فى مرضاها الصغار الذين تتراوح أعمارهم فيما بين الثالثة تقريباً والرابعة . وهذا يخالف الرأى المسلم به فى دوائر التحليل النفسى الذى يذهب إلى أن الذات العليا تبدأ فى العمل والنشاط بعد أن تحل العقدة الأوديبية أى حوالى السنة الخامسة تقريباً . وأكثر من ذلك فقد انتهت به بحوثها إلى أن الذات العليا التى تنتمى إلى هذة المرحلة المبكرة من العمر هى أكثر عنفاً وقسوة من الذات العليا للطفل الكبير والبالغ ، وإنها لتكاد تسحق « الذات » الضعيفة للطفل الصغير ، حقاً إننا نجد « الذات العليا » عند البالغ أكثر صراحة وعنفاً مما يكون عليه أبواه بالفعل ولكنها مع ذلك تنتمى إليهما وإن تفاوت حظها فى ذلك الانتماء . ولكننا نجد بالنسبة للأطفال الصغار « ذاتا عليا » ذات طبيعة خيالية لا يمكن تصديقها أو تصورها إلى حد بعيد . وكلما كان الطفل صغيراً أو كلما تعمقنا فى أغوار النفس اتضح لنا صدق ما نقول . فيصادفنا خوف الطفل من أن يبتلع أو يقطع جسمه إربا إربا على أنه جزء مألوف من حياة الطفل النفسية ، كما نعلم أيضاً أن القصص الخيالية التى يسمعها الطفل عن الحيوانات المفترسة والشياطين تؤثر تأثيراً لاشعوريا فى خيال كل طفل صغير مما يترتب عليه خوف الطفل وشعوره بأنه كائن مهدد عن طريق هذه الأشباح والصور الشريرة . وتقول ميلانى كلين « لا يخالجنى أى شك[1] — نتيجة لملاحظاتى التحليلية — أن الشخصيات التى تكمن وراء هذه الصور الخيالية المفزعة إنما هى شخصية الوالدين ، وأن هذه الأشكال المخيفة إنما تعكس بطريقة ما خصائص الأب أو الأم مهما كان وجه الشبه مشوها أو وهميا » وإذا ما سلمنا بهذه الحقائق نتيجة للملاحظات التحليلية وعرفنا أن الأشياء التى يخافها الطفل ؛ وهى تلك الحيوانات المتوحشة والغيلان التى تمثلها فى ذاتها ؛ إنما هى صورة لوالديه مناظرة لهما لا تنتهينا إلى النتائج الآتية : أن الذات العليا ليست صورة مطابقة للوالدين ولكنها من خلق خيالات الطفل ، وأن الخوف من الموضوعات الحقيقية — الحصر الوهمى Phobic Anxiety — إنما يرتكز على خوفه من « ذاته العليا » غير الواقعية ومن الموضوعات التى هى حقيقة فى ذاتها ولكنه يراها

(1) Melanie Klein : "The Early development of conscience in the child." p. 68. in Sandor Lorand, editor, "Psycho-Analysis today".

بطريقة وهمية خيالية تحت تأثير الذات العليا . وهذا يفضى بنا — على حد تعبير ميلانى كلين — إلى المشكلة التى تبدو أساسية فى مسألة تكوين الذات العليا : كيف يمكن أن يخلق الطفل صورة وهمية كتلك عن والديه ، تلك الصورة البعيدة كل البعد عن الحقيقة . أما الإجابة عن هذا السؤال فنجدها فى تلك الحقائق التى أسفر عنها تحليل الأطفال الصغار . فإذا ما نفذنا إلى الطبقات العميقة من عقل الطفل واكتشفنا تلك الكميات الضخمة من القلق — أى تلك المخاوف من من الأشياء الخيالية الوهمية وهذا الرعب الفظيع الناجم من خشية الطفل أن يهاجم بجميع الطرق الممكنة — نجد كمية مناظرة من الدوافع العدوانية المكبوتة ونتمكن من ملاحظة رابطة عليه تربط بين مخاوف الطفل ونزعاته العدوانية .

ولقد قال فرويد فى كتابه Beyond The Pleasure-Principle بنظرية مؤداها أنه فى مطلع حياة الإنسان تكون غريزة العدوان أو غريزة الموت مقاومة ومقيدة باللبيدو أو غريزة الحياة . ويعقب ذلك اندماج بين الغريزتين مما يؤدى إلى ظهور السادية . ويعمد الأورجانزم إلى استخدام اللبيدو النرجسى لدفع غريزة الموت إلى الخارج ويوجها إلى موضوعاتها خيفة أن يحطم بهذه الغريزة. ويعتبر فرويد هذه العملية أساسية لتفسير علاقات الشخص السادية بموضوعاته. وتقول ميلانى كلين « وزيادة على ذلك ينبغى القول إنه فى موازاة انحراف أو اتجاه غريزة الموت إلى العالم الخارجى نحو موضوعاتها وجد رد فعل داخلى يعمل باستمرار ضد ذلك الجزء من الغريزة الذى لا يستطيع بهذه الكيفية أن يتجه إلى الخارج . وذلك لأن الخوف من التحطيم أو الهلاك بهذه الغريزة العدوانية يولد فى الذات — كما أعتقد — توترا نفسياً مفرطاً تشعر به فى صورة القلق النفسى الشديد أو الحصر مما يؤدى بالذات منذ مطلع النمو إلى استخدام اللبيدو فى مقاومة غريزة الموت[1] . ومهما يكن الأمر ، فإن الذات تقوم بهذه الوظيفة ولكن بشكل غير كامل ما دامت لا تستطيع الفصل بين الغريزتين (غريزة الحياة وغريزة الموت) نظرا لامتزاجهما . ويحدث الانقسام فى « الهى » أو فى المستويات الغريزية للنفس مما يترتب عليه أن يتجه جزء من الدوافع الغريزية ضد الآخر . وهذا الدفاع الأول الذى تقوم به الذات يتضمن الحجر الأساسى فى نمو الذات العليا التى يمكن أن يفسر عنفها الشديد المفرط فى هذه المرحلة المبكرة على أنها مشتقة من

(١) Ibid, p. 66.

هذه الغرائز العنيفة الهدامة ، كما أنها تحتوى كذلك على كميات كبيرة من الغرائز العدوانية بالإضافة إلى نسبة معينة من دوافع الليبيدو . وهذا التصوير للمسألة يجعلها أقل إثارة للحيرة والدهشة فى فهم السبب الذى يجعل الطفل يكون هذه الصورة الوحشية العنيفة عن والديه — ذلك لأن الطفل يتصور القلق النفسى الشديد الحادث من غرائزه العدوانية على أنه خوف من موضوع خارجى لأنه قد جعل منه هدفاً لغرائزه العدوانية ؛ ذلك لأن الطفل قد أسقط هذه الدوافع العدوانية على هذا الموضوع الخارجى لكى تبدو له على أنها صادرة وموجهة ضده من[1] هذه الناحية .

وعلى هذا النحو ، ينقل الطفل مصدر القلق إلى الخارج ويجعل الموضوعات الخارجية تبدو أكثر خطورة بالنسبة إليه ، ولكن هذا الخطر فى حقيقة الأمر إنما ينتمى إلى غرائزه العدوانية . ومن أجل هذا يتناسب خوفه من الموضوعات الخارجية مع عنف دوافعه السادية . ومع ذلك فإن المسالة ليست مجرد تحويل كمية معينة من السادية إلى كمية مناظرة لها من القلق . فإن العلاقة هى علاقة مضمون كذلك . فإن خوف الطفل من الموضوع الخارجى ليرتبط فى أدق التفاصيل بالدوافع العدوانية المعينة والخيالات التى يقمعها الطفل إزاء الوسط الذى يكتنفه. وعلى هذا النحو ، يكون كل طفل — على حدة — الإيماجو الوالدية — أى الصور التى من خلق الطفل عن والديه — الخاصة به وحده والتى تميزه عن غيره . ومع ذلك فإن هذه الصور التى يكوها الأطفال عن والديهم تشترك فى بعدها عن الحقيقة كما تشترك كذلك فى الطابع المرعب الذى تصطبغ به ، ووفقاً لرأى ميلانى كلاين يبدأ تكوين الذات العليا فى نفس الوقت الذى يبدأ فيه الطفل أول امتصاص فمى لموضوعاته Oral Introjection وهذا الرأى إنما يقوم على اعتقاد المؤلفة بأن النزعات الأوديبية للطفل تبدأ هى أيضاً فى وقت أكثر بكوراً من الرأى المسلم به أى أنها تبدأ عندما يكون الطفل فى مرحلة الرضاعة Suckling Stage أى قبل أن تسود دوافعه التناسلية Genital Impulse ؛ وتعتقد كذلك أن الطفل يدمج موضوعاته الأوديبية أثناء المرحلة الفمية السادية . وفى هذه المرحلة عينها التى يكون فيها الطفل على علاقة وثيقة بدوافعه الأوديبية المبكرة تبدأ الذات العليا فى التكوين . وبما أن هذه الصور الخيالية التى يكونها الطفل عن والديه لها كل

(١) Ibid, p. 66.

الخصائص السادية العنيفة التى تمتاز بها هذه المرحلة من مراحل نموه — أى المرحلة الفمية السادية — ، وحيث إن هذه الدوافع العدوانية ستسقط من جديد على موضوعات العالم الخارجى يصبح الطفل أسير الخوف من معاناة ضروب من الاعتداء لا يمكن تصورها سواء من موضوعات حقيقية أو من الذات العليا . وسيعمل القلق النفسى الذى يعانيه الطفل على تزايد دوافعه السادية بعنف ودفعها على تحطيم هذه الموضوعات المعادية له لكى ينجو من هجماتها . وهذه الحلقة المفرغة التى تكونت ، بهذه الكيفية ، حيث يدفع القلق الشديد الطفل إلى تحطيم موضوعه يترتب عليها ازدياد القلق الذى يعانيه الطفل ، وهذا القلق يدفعه من جديد إلى تحطيم موضوعه ؛ كما أنها تتضمن كذلك ميكانيزماً نفسيا يكمن وراء النزعات غير الاجتماعية للفرد .

وعلى ذلك يجب أن نفترض أن الشدة المسرفة والقسوة الغلابة للذات العليا ، وليس ضعفها أو الحاجة إليها كما هو مسلم به عادة هى علة السلوك الإجرامى. وفى مرحلة متأخرة نسبياً من مراحل النمو يدفع الخوف من الذات العليا الذات إلى الهرب من الموضوع المثير للقلق ؛ ويمكن أن يفضى هذا الميكانيزم الدفاعى من ناحية الطفل إلى علاقة ناقصة أو مبتورة بالنسبة للموضوع . وكما نعلم عند ما تبدأ المرحلة التناسلية تكون غرائز الطفل السادية قد قهرت على نحو سوى كما تتخذ علاقته بالموضوعات الخارجية طابعاً إيجابياً . وترى ميلانى كلين أن تقدم الطفل فى النمو يصاحبه[1] ويتفاعل معه تغيرات فى طبيعة الذات العليا. وكلما خفت وقلت النزعة السادية عند الطفل انسحب إلى الوراء تأثير الصورة الخيالية التى يكونها الطفل عن والديه ، تلك الصورة التى تتسم بطابع البعد عن الحقيقة والرعب ما دامت تلك الصورة مشتقة من نزعات الطفل العدوانية . وكلما اشتدت نزعاته التناسلية وقويت تظهر الايماجو الوالدية مطبوعة بطابع يتسم بالشفقة والأمل لأنها تقوم وتعتمد على التثبيت الذى تم فى مرحلة المص الفمية بالنسبة لأمه الحنون الشفوق كما أنها تقترب كثيراً من الموضوعات الحقيقية ، وتأخذ الذات العليا فى التحول من التهديد وإملاء الأوامر المتعارضة التى لا تستطيع الذات لها تحقيقاً إلى اتجاه أكثر اعتدالا أوسهالة كما أن أوامرها ومطالبها تصبح قابلة للإشباع .

(1) Melanie Klein : "The early development of Conscience in the child". p.68 in Sandor Lorand, editor, "Psycho-Analysis to-day."

وفى الحقيقة ، تأخذ الذات العليا فى التغير والتحول رويداً رويداً إلى ما نسميه بالضمير بالمعنى الحقيقى الذى يفيده هذا اللفظ ،وكما أن طبيعة الذات العليا تأخذ فى التغير كذلك يتغير تأثيرها على الذات وعلى الميكانيزم الدفاعى الذى تلجأ إليه . ونعرف مما كتب فرويد أن الشفقة هى رد فعل للقسوة . ولكن رد فعل كهذا لايتكون عند الطفل إلا إذا ما اكتسب الطفل نوعاً من العلاقة الإيجابية بموضوعاته ، أى عند ما يحتل التنظيم التناسلى Genital Organization مركز الصدارة . وإذا ما وضعنا هذه الحقيقة جنباً إلى جنب بجوار الحقائق الأخرى المتعلقة بتكوين الذات العليا أمكننا كما تقول ميلانى كلين أن نخلص إلى النتائج الآتية : ما دامت وظيفة الذات العليا هى استثارة القلق ، فإنها تستثير الميكانيزمات الدفاعية العنيفة للذات ، كما تقدم بنا القول ، ذات الطبيعة غير الخلقية وغير الاجتماعية . ولكن حالما تضعف النزعة السادية للطفل وتتغير طبيعة الذات العليا ووظيفتها حتى تستثير قدراً أقل من القلق وقدراً أكبر من الإحساس بالذنب فإن هذه الميكانيزمات الدفاعية التى تكون أساس الاتجاه الخلقى تنشط ويبدأ الطفل فى اعتبار موضوعاته ويصبح أكثر قابلية للشعور الاجتماعى .

ولقد أيد التحليل النفسى لكثير من الأطفال ، من أعمار مختلفة ، هذا الرأى. ولقد تمكنا عن طريق التحليل النفسى للعب الأطفال ، من أن نتتبع سير الخيالات كما تتمثل فى لُعبهم ولعبهم واستطعنا أن نكون رابطة أو علاقة بين هذه الخيالات الوهمية والقلق النفسى الذى يعانونه . وكلما تقدمنا فى تحليل مضمون القلق لاحظنا أن النزعات العدوانية والخيالات المسببة للقلق تأخذ فى الظهور شيئاً فشيئاً وتأخذ فى النمو بنسب كبيرة سواء فى الكمية أو فى الشدة . وإن « الذات » لفى خوف من طغيان القوة الآلية لهذه النزعات العدوانية ومداها الواسع مما يترتب عليه أن تنهمك فى مقاومة دائمة لكى تحافظ على نفسها بإزاء هذه النزعات العدوانية بمساعدة النزعات الليبيدية سواء من طريق كبح هذه النزعات العدوانية أو بتهدئتها أو بجعلها غير مضرة . وهذه الصورة إنما تجسم بوضوح رأى فرويد — فيما ترى ميلانى كلين — فى موضوع غرائز الحياة (الإروس Eros) فى عراكها مع غرائز الموت . ولكننا نعرف أن هناك وحدة وثيقة وتفاعلا بين هاتين القوتين ، فى كل مرحلة مما يترتب عليه أن التحليل لا يمكن أن ينجح إلا عن طريق تتبع الخيالات العدوانية للطفل فى كل دقائقها وتفاصيلها ! وبهذه الطريقة يتمكن التحليل من

تخفيف أو إزالة أثرها بالقدر الذى يتمكن به من متابعة النزعات اللبيدية ومن كشف منابعها الأولى أيضاً والعكس بالعكس .

أما فيما يتعلق بالمضمون[1] الفعلى والأهداف التى تهدف إليها هذه الخيالات فإننا نعرف من فرويد وأبراهام أنه فى المراحل المبكرة للتنظيم اللبيدى ، فى المرحلة ما قبل التناسلية ، حيث يحدث الاندماج بين اللبيدو والغريزة العدوانية الهدامة ، تكون الغلبة للدوافع السادية للطفل. وكما أثبت التحليل النفسى للبالغ صحة الرأى الذى يقرر أن الطفل فى المرحلة الفمية السادية التى تعقب مرحلة الرضاعة يمر خلال مرحلة تتميز بالرغبة فى أكل اللحم البشرى Cannibalistic Stage يرتبط بها فيض من الخيالات التى تدور حول هذه الرغبة . ومع أن هذه الخيالات لا تزال متمركزة حول الرغبة فى أكل ثدى الأم أو جسمها كله ، فإنها لا ترمى فقط وبالذات نحو إشباع رغبة بدائية فى تناول الغذاء بل إنها ترمى أيضاً إلى إشباع نزعات الطفل الهدامة . وتتميز المرحلة السادية التى تتبع هذه المرحلة — أى المرحلة الإستية السارية — باهتمام غلاب بعمليات الإخراج — أى فى البراز والإست — كما أنها تمت بصلة وثيقة إلى النزعات العدوانية المدمرة . ونعرف أن إخراج البراز إنما يرمز إلى الرغبة فى طرد الموضوع المدمج — أى الذى أصبح جزءاً من الذات . Incorporated Object — تصحبه مشاعر العدوان والقسوة هذا بالإضافة إلى رغبات هدامة من أنواع مختلفة . وتصبح الإليتان ذات أهمية كموضوع لهذا النشاط . ومع ذلك ، فإن — النزعات الإستية السادية لا تزال تشتمل على أهداف وموضوعات مكبوتة فى الأعماق.

ولقد أظهرت الحقائق التى تمكنت من جمعها ميلانى كلين من التحليل النفسى لمرضاها وجود مرحلة تظهر فيها النزعات البولية السادية Urethral- Sadistic Tendencies بين المرحلة الفمية السادية والمرحلة الإستية السادية كما أنها تدل على أن النزعات الأستية والبولية ما هى إلا استمرار — مباشر لنزعات المرحلة الفمية السادية بالنسبة للهدف المعين والموضوع المعين للتحطيم . فى الخيالات التى تنتمى إلى المرحلة الفمية السادية يحطم الطفل ثدى أمه ، والوسائل التى يلجأ إليها الطفل فى ذلك هى الأسنان والفك ؛ وفى أفكاره الخيالية التى تنتمى إلى المرحلة البولية السادية يحاول الطفل أن يحطم جوف أمه والوسائل التى يلجأ إليها هى البوال والبراز لتحقيق غرضه . وفى هذه المجموعة الثانية من الأفكار الخيالية ينظر إلى

(١) Ibid, p. 69.

المواد البرازية على أنها مراد حارقة أو حيوانات مفترسة أو أسلحة ويدخل الطفل فى مرحلة تتخذ خلالها ساديته Sadism كل أداة ممكنة من أجل تحقيق غرضه ألا وهو تحطيم جسم الأم وما فى جوف الأم !

أما فيما يتعلق باختيار الموضوع ، فإن دوافع الطفل الفمية السادية لا تزال هى العامل الكامن ، ومن أجل هذا يفكر الطفل فى مص وبلع ما فى جوف أمه كما لو كان ثدياً . ولكن هذه الدوافع تتسع فى المدى نتيجة للآراء الأولى التى يكونها الطفل عن المسائل الجنسية . خلال هذه المرحلة . ونحن نعلم أن الطفل يتكون لديه أفكار لاشعورية عن عملية الجماع التى تتم بين والديه وعن كيفية ولادة الأطفال ، عند ما تنشط دوافعه التناسلية ، ولكن التحليل النفسى فى المراحل المبكرة من العمر قد أبان عن أن الطفل يكون نظرياته الجنسية فى وقت أكثر بكوراً من هذا بكثير ، أى فى الوقت الذى تكون فيه دوافعه ما قبل التناسلية لاتزال تحدد وتعين على وجه رئيسى طابع هذه النظريات ، ولو أن دوافعه التناسلية المستترة حتى ذلك الوقت لها بعض الأثر فى هذا الموضوع . وهذه النظريات مردها إلى فكرة الطفل عن أمه فى حالة الجماع . فهو يرى أن الأم تدمج وتدخل فى ذاتها باستمرار قضيب الأب عن طريق الفم فيصبح القضيب بعضاً منها مما يترتب عليه أن يكون جسمها مليئاً بعدد عظيم من القضب والأطفال . ويود الطفل أن يبتلع ويحطم كل ذلك ! وهجوم الطفل على ما فى جوف أمه بغية تحطيمه ينطوى على مهاجمته لعدد كبير من الموضوعات كما يدل كذلك على أن الطفل بدأ مرحلة مشحونة بالعواقب والنتائج. فى البدء يحل الرحم محل العالم الخارجى. ويقرب الطفل ، منذ البداية ، العالم الخارجى وهو يعانى رغبات تهدف إلى مهاجمته وتحطيمه . وعلى هذا ، يكون الطفل على استعداد منذ البداية لأن ينظر إلى العالم الخارجى نظرته إلى عدو له — وإن تفاوت هذا العداء شدة أو ضعفاً — كما ينظر إليه أيضاً على أنه عالم آهل بموضوعات إن هى إلا على استعداد لصب الهجمات فوقه . واعتقاد الطفل أنه فى مهاجمته وتحطيمه لجسم أمه على هذا النحو إنما يهاجم ويحطم أباه وإخوته الذكور والإناث ، وبمعنى أوسع فإنه يحطم العالم . ذلك الاعتقاد واحد من الأسباب الكامنة للإحساس بالذنب ولنمو الشعور الخلقى والاجتماعى بوجه عام . وفى رأى ميلانى كلين أن إحساس الشخص بالذنب ورغبته فى إصلاح الموضوع المحطم عامل عام ورئيسى فى نمو التسامى أو الإعلاء .

ولقد كشف التحليل النفسى للعب الأطفال عن الحقيقة الآتية ،ألا وهى أن الغرائز العدوانية عند ما تصل ذروتها ونهايتها ، لا يمل الطفل ولا يتعب من تمزيق وكسر وإحراق جميع الأشياء مثل الورق وعيدان الثقاب والصناديق واللعب الصغيرة. هذه الأشياء التى يتناولها الطفل بالتحطيم والتهشيم إنما ترمز إلى والديه وإخوته ذكوراً كانوا أم أناثاً وبوجه خاص جسم أمه و ثديها . وهذا الاندفاع العنيف يعقبه نوبات من الضيق النفسى والإحساس بالذنب . ولكن عند ما يتلاشى تدريجاً الضيق النفسى أثناء التحليل تبدأ النزعات التكوينية البنائية فى الظهور . ولنذكر على سبيل المثال أن الطفل كان يعمد فى البدء إلى قطع الخشب فيأخذ فى تكسيرها إلى قطع صغيرة أثناء نوبات الحصر التى تعتريه . وعند ما تتلاشى نوبات القلق يأخذ الطفل فى محاولة صنع قلم من هذه القطع الصغيرة من الخشب . فيلجأ إلى قطع من الرصاص كان قد أخرجها من قبل من الأقلام التى كسرها ثم يحدث شقاً لإدخال الرصاص وبعد ذلك يربطها بقطعة من القماش لكى تبدو فى منظر أجمل ،أما عن رمزية هذا القلم لقضيب أبيه ولقضيبه هو نفسه الذى يخاف عليه من التحطيم فيتضح من مضمون المادة التى يستخدمها ومن التداعى اللفظى الذى يقوم به الطفل بصدد هذا الأمر .

وبالقدر الذى عنينا به فى تبيان الحقيقة التى تفيد أن المشاعر الاجتماعية والخلقية للفرد إنما تنشأ عن « ذات عليا » من نوع أكثر اعتدالا . وفى ظل المستوى التناسلى Genital Level علينا أن ننظر بعين الاعتبار إلى النتائج التى نستخلصها من ذلك . . فكلما تعمقنا إلى الطبقات العميقة لعقل الطفل ازداد الأمل فى نجاحنا فى التخفيف من شدة وقسوة الذات العليا عن طريق التخفيف من حدة مكوناتها السادية الناجمة عن المراحل المبكرة لعملية النمو . وإذا ما تم لنا ذلك ، فإن التحليل النفسى يمهد الطريق ليس فقط للتكيف الاجتماعى للطفل بل يمهده أيضاً لتكوين ونمو المثل الاجتماعية والمستويات الخلقية عند البالغ لأن مثل هذا النمو إنما يعتمد على كل من الذات العليا والجنسية وقد وصلتا بطريقة كافية إلى المستوى التناسلى القريب من امتداد الحياة الجنسية للطفل لأن الذات العليا تكون قد كونت طابعها ووظيفتها التى ينشأ منها إحساس الفرد بالذنب بالقدر الذى يوافق عليه المجتمع ويقدره أى ضميره .

والرأى الأخير الذى ننتهى إليه من هذا البحث ، أن غرائز الفرد لا تبقى

بصورتها البدائية بل يلحقها التغير والتعديل من تأثير العوامل الاجتماعية . فالأصل فى الإنسان أنه مزود بغرائز أودوافع فطرية للسلوك تنشد وتلح فى الإشباع دون نظر إلى أى اعتبار . فالطفل كائن حى لا يخضع ولا تعترف دوافعه إلا باللذة والألم كقانون لها . ولكن أثر المجتمع الذى يظهر أول ما يظهر فى أوامر الأم سرعان ما يعدل من سلوك الطفل . والطفل مضطر إلى هذا التعديل رغبة فى بقاء حب الأم وخوفاً من ضياعه . ولقد لاحظنا من قبل أثر الدوافع العدوانية فى تكوين خلق الطفل وضميره . فإذا نجح المجتمع فى أن يعدل من هذه الغريزة العدوانية ويطامن من حدتها ، يصل أفراده إلى الاتزان النفسى الذى هو علامة التكيف الصحيح . والغريزة العـــدوانية ذات تاريخ طريف فى ميدان التحليل النفسى . فلقد نشر ألفرد أدلر بحثاً فى عام سنة ١٩٠٨ بعنوان The Aggression Impulse in Life & Neurosis بين فيه أن السادية والمازوكية تتكون من اتحاد وامتزاج حافزين منفصلين ومختلفين ألا وهما الحافز الجنسى والعدوانى . وكان هذا بالطبع أيام كان أدلر من أتباع فرويد . ولقد بين فى بحثه هذا كيف أن لغريزة العدوان أثرها فى أختيار المهنة التى يختارها الفرد فى حياته كالقاضى والمدرس والطبيب والسياسى . ولقد تأثر فرويد تأثراً كبيراً بنظرية أدلر التى تذهب إلى أن القلق النفسى الشديد إنا هو ناشىء عن كبت الدوافع العدوانية ولكنه أنكر مع ذلك الدافع العدوانى من حيث هو كذلك إنكاراً مطلقاً. ويتجلى ذلك فى تحليله « حالة فوبيا عند صبى فى الخامسة من عمره » . وبعد ذلك بعشر سنوات نشر فرويد فرضه الذى يقول بغريزة الموت فى كتابيه Beyond The Pleasure-Principls (١٩٢٠) وفى كتابه الثانى The Ego & the Id (١٩٢٣) . ولكننا لا نجد التقدير والوصف الشامل للحافز العدوانى قبل عام ســـنة ١٩٣٠ فى كتابه الموسوم بعنوان Civilization & Its discontents حيث يقول « أنا أعلم أن المظاهر التى تتفصح بها غريزة الهدم مختلطة بالشبقية تقع دواماً أمام ناظرينا متجهة إلى الخارج أو الداخل فى السادية والمازوكية . ولكن لم أعد أفهم كيف أننا قد غفلنا عن شمول العدوان والهدم اللاشبقى ، وكيف قد نسينا بالمرة أن نعطيه الأهمية الجديرة به فى تفسيرنا للحياة . وأستطيع أن أتذكر اتجاهى الدفاعى المعارض عند ما أعلنت غريزة الهدم عند ظهورها أول مرة فى مؤلفات التحليل النفسى ، وكم أخذت من الوقت حتى أصبحت

مدركاً لها . ويدهشني أقل من ذلك أن الآخرين كانت وما تزال تبدو منهم نفس المقاومة » .

ولسنا بحاجة إلى تكرار القول بأن الدافع العدواني قد لعب دوراً هاماً في الموقف الأوربي وفي تكوين خلق الطفل ونشوء ضميره .

كمال الدين عبد الحميد نايل

المراجع

1. Psycho-Analysis to-day. Editor Sandor Lorand.
2. Freud : The Ego & the Id.
3. Melanie Klein : The Psycho-Analysis of Children.
4. Dalbiez : Psycho-Analytical Method & the Doctrine of Freud.
5. Kate Triadlandes : Psycho-Analytical Approach to juvenile delinquency.
6. The Year-book of Psycho-Analysis IV, 1948.